المحاضرة الأولى :- الاستشراق :المفهوم / النشأة والتطور

تـــمـــهـــيـــد

إن المستشرقين هم الفئة الأولى من الباحثين المحدثين الذين اهتموا اهتماما بالغا بالأدب العربي، دراسة وتأليفا، وتأسيسا لعديد المناهج التي تهتم بالأدب وقضاياه. وقد ذهب عديد الدّارسين إلى أن الاستشراق هو الاتجاه البحثيّ الأكثر اهتماما بالأدب العربي وتاريخه خلال القرن العشرين[1]. وقد تـحمّس هذا الاتجاه في الاهتمام بالأدب العربي لعدّة اعتبارات، منها طبيعة المرحلة التي انتعش فيها الإنتاج الاستشراقي، حيث اتّسمت بأنها البدايات التأسيسية الأولى للعديد من جوانب الدراسة الأدبية والنقدية والتاريخية منها،بل والثقافية عامّة. فقد أُتيح للمستشرق ما لم يُتح لغيره من الكُتّاب العرب، من مصادر البحث ومكتبات ومخطوطات و وسائل كتابة. كما أنّ دوافعه وحماسته نحو هذا النوع العلمي كانت تذكيها عديد الدوافع الظاهرة والباطنة، منها المدرسيّة ومنها الحضارية*.

ونظرا لاعتبارات معرفية كثيرة، انطلقت منذ الثلث الأخير من القرن العشرين، سلسلة من الخطابات النقدية، التي عملت على قراءة مقولات الخطاب الاستشراقي، والنّبش في خلفياته النظرية، وهي "حركة نقد يقوم بها الآن عدد من العلماء الشبان في مختلف بلاد الشرق، تهدف إلى فحص التراث الذي تركه المستشرقون الأوائل، وتقويمه والرد على الآراء والأفكار، التي تصدر عن المستشرقين المعاصرين، وصحيح أن هذه الحركة تلقي كثيرا من الضوء على بعض الجوانب الخفيّة في التراث الشرقي نفسه، وتوضّح بعض النواحي التي لم يستطع العقل الغربي فهمها على حقيقتها، كما أنها كشفت عن الدوافع والأهداف التي تكمن وراء كثير من الأعمال التي قام بها المستشرقون"[2]. ويعتبر الدكتور محسن جاسم الموسوي أن ما حدث في العقود الأخيرة من

---

[1] ينظر سعيد علوّش، مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، الشركة العالمية للكتاب، ط1، 1987ص219..

* امتدت ممارساتهم من النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وتواصلت إلى غاية الربع الثاني من القرن العشرين.

[2] أحمد أبو زيد، الاستشراق والمستشرقون، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الثاني، ص 559.

القرن العشرين من هؤلاء الشبّان، كان بمثابة الوعي الناقد والناقض لخطاب الاستشراق، وقد "كان هذا الوعي يعيد تكوين علاقته بما كان استشراقا من خلال نمط آخر من الحوار يقوم على الاتهام والخصومة، وسواء قرأنا لأنور عبد الملك أو لإدوارد سعيد أو لغيرهم من الأذهان العربية القوية التي كان لها حضورها الفعال في السنوات الأخيرة، فإن أولى الملاحظات التي يألفها القارئ عند قراءة هؤلاء، تتلخص في الرغبة الشديدة لديهم لمواجهة هذا (الاستشراق)، وتشريحه وتمزيق تاريخه ورموزه، وفضح آلياته وبناه...فصدمة الاستشراق حقيقية كصدمة الحضارة ذاتها"[1].

فما هو ياترى مدلول الاستشراق؟ وما هي أهم الشروط التاريخية التي نشأ فيها وتطور ؟

-أولا: مفهوم الإستشراق:

أ-الاستشراق في اللغة: لا نكاد نعثر في المعاجم العربية على أثر لكلمة (الاستشراق)، فكل ما نعثر عليه هو مادة (شَرَقَ) وما يُشتق عنها، من قبيل، شرقت وتشريق، والمشرق، وشرّقوا: أي ذهبوا إلى الشرق، أو أتوا ناحية الشرق.

أما في معجم لاروس: (*Orientalisme*)،(الاستشراق): هو علوم الشرق: تاريخ، لغات، آداب، فن، دين، المرتبطة بشعور الشرق والشرق الأقصى.أما (*Orientaliste*)، (المستشرق): فتعني عالم متخصص في اللغة والآدابوغيرها، الخاصة بالشرق والشرق الأقصى[2].

ب – الاستشراق في الاصطلاح:

يختلف المدلول الاصطلاحي للكلمة بحسب الزاوية التي تُتناول من جهتها. حدّه عادل الألوسي في تعريف شامل فقال: "الاستشراق هو علم الشرق أو علم (العالم الشرقي)،

[1]محسن جاسم الموسوي، الإستشراق في الفكر العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1993، ص ص 16، 17.
[2]Laraousse super Major (Dictionnaire encyclopédique) ,Paris,2006, p745.

وكلمة (مستشرق)(*Arabist*) أو (*Orientalist*)، بالمعنى العام تُطلق على كل عالم غربيّ يشتغل بدراسة الشرق: لغاته أو آدابه أو حضارته وأديانه"[1].

والاستشراق بحسب إدوارد سعيد هو تلك الصورة الأنطولوجية الأوربية عن (الشرق) الجغرافي. ويعني (الشرق) ذاك الكيان ذو المكانة الخاصة في الخبرة الأوربية، وهو أيضا الموقع الغني بالثروات، والذي مثّل أفضل مستعمرات أوربا، وهو "مصدر حضارتها ولغاتها، ومنافسها الثقافي، وهو يمثّل صورة من أعمق صور الآخر وأكثرها تواترا لدى الأوربيّين. أضف إلى ذلك أن الشرق قد ساعد في تحديد صورة أوربا أو (الغرب) باعتباره الصورة المضادة، والفكرة والشخصية والخبرة المضادة. ومع ذلك فلا يعتبر أيّ جانب من جوانب هذا (الشرق) محض خيال، فالشرق جزء لا يتجزأ من الحضارة المادية والثقافة الأوربية. والاستشراق يعبّر عن هذا ويمثّله ثقافيا، بل وفكريا باعتبار الاستشراق أسلوبا للخطاب، أي للتفكير والكلام، تدعمه مؤسسات استعمارية وأساليب استعمارية"[2].

ولا شك أن الاستشراق كممارسة حضارية، بعيدة الغور في المآرب والغايات التي لا يستجلي كوامنها، إلا المستبصرون بخفايا الخطاب الاستشراق الغربي.

على أن إدوارد سعيدكسا مصطلح (الاستشراق)مسحته الأكاديمية، فاعتبر أنه:"مبحث أكاديميٌّ، بل إن هذا المفهوم لا يزال مستخدما في عدد من المؤسسات الأكاديمية، فالمستشرق كلُّ من يعمل بالتدريس أوالكتابة أو إجراء البحوث في الانسان أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أوفقه اللغة، وسوءا كان ذلك يتصّل بجوانب الشرق العامة أو الخاصة، والاستشراق وصف لهذا العمل"[3].

ثانيا: نشأة الإستشراق:

---

[1] عادل الألوسي، التراث العربي والمستشرقون، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 2001، ص 13.

[2] إدوارد سعيد، الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، 2006،ص 44.

[3] المرجع نفسه، ص 44.

لا يعرف بالضّبط من هو أوّل غربي عني بالدّراسات الشّرقية ، ولا في أي وقت كان ذلك؟ ولكن ممّا يجدر ذكره أنّ بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس إبّان عظمتها ومجدها ، وتثقفوا في مدارسها ، وترجموا القرآن الكريم والكتب العربية إلى لغاتهم وتتلمذوا على يد العلماء المسلمين في مختلف العلوم ، بخاصة في الفلسفة والطّب والرياضيات.

يقول عمر فروخ "إنّ أوائل المستشرقين منذ القرن الرابع عشر هجري كانوا من الرّهبان ، لأنّ العلم كان في ذلك الدّور من تاريخ أوربا قاصرا على الرّجال الكهنوت، فلا عجب إذا نحن قلنا إن جربرت "gerbert" الفرنسي الذي أصبح بابا باسم سلفستر الثاني. كان أول المستشرقين، وأول بابا فرنسي يرقى سدّة الفاتيكان"[1].

وكان إلى جانب "جربرت دي أورلياك"GERbert de orlial" ، الرّاهبان بطرس المحترم "Pierre le senere" 1092-1196م ،"وجيراردي كريمون "Gerard de crement 1114-1118م. وقد عمل هؤلاء تحت راية الكنيسة التي كان لها دور في دفع تكوين العملية الإستشراقية ، وذلك بالتعرف على اللغة العربية وآدابها لبدء عملية التّبشير ، فقد بدا للباباوات أن ينشئوا الرهبنة في القرون الوسطى لبث الدّعوة الدّينية بين أبناء الشّرق في آسيا وإفريقيا ، وفي الأندلس وصقلية من قارّة أوربا ، وثبت لهم أنّه لا سبيل إلى إنجاح هذا المشروع إلاّ بتعليم لغات المشارقة ولا سيما العربية.

وبعد عودة أولئك الرّهبان إلى بلادهم ، نشروا ثقافة العرب ، ومؤلّفات أشهر علمائهم فأسّست المعاهد للدّراسات العربية. وكانت أوّل مدرسة للدّراسات الشّرقية في أوربا ، هي التي أسست في طليطلة سنة 1250م وتدرس فيها العربية والعبرية ، ومن أشهر خرجيها "رايموندوس لوللوس "Raynum dus lulus حوالي سنة 1310م الذي كان يتقن العربية ويعرف المؤلفين العرب معرفة جيدة لا يضاهيه فيها أحد من

[1]. عمر فروخ ، الاستشراق بحث –المستشرقون ما لهم وما عليهم–، سلسلة كتب الثقافة المقارنة ، بغداد ، العدد1 ، ص45.

الغربيين ، حتّى العصور الحديثة ، وكثر إنشاء الجامعات في الغرب فتمّ تأسيس أوّل جامعة في أوربا الوسطى في كراكو من مدن بلندا سنة 1361م. وبعد أربع سنوات أنشئت جامعة فيينا وهي أوّل جامعة ألمانية[1].

كما يرى بعض الباحثيين أنّ تاريخ نشأة هذه الحركة أو الظّاهرة الأدبية والفكرية يرجع إلى ذلك الانهزام المرير الذي ألمّ بالأمم الغربية أثناء الحروب الصليبية، حينما أحسّ الغرب بالذّهول والإحباط أمام قوّات المسلمين والإسلام وفي هذا يقول علي محمد جريشة: "ولكن الذي نشط الإستشراق أكثر وحرّكه في الاتجاه السّلبي وانحرافه هن الأغراض العلمية النّزيهة منذ البداية ، هو ما كان من إخفاق الحروب الصّليبية الذي كان دافعا للمزيد من الاهتمام بالثّقافة الإسلامية بدليل الوثيقة الأخيرة التي عثر عليها أخيرا وتتضمّن وصية القدّيسين ملك فرنسا وقائد الحملة الصّليبية الثامنة ، الذي أيقن لدى عودته إلى فرنسا أنّه لا سبيل إلى النّصر ، والتّغلّب على المسلمين عن طريق الحربية ، ولذا يتعيّن تحويل المعركة من ميدان السّلاح إلى المعركة في ميدان العقيدة والفكر"[2].ويتّضح لنا من خلال ذلك أنّ الحروب الصّليبية التي دارت رحاها بين المسلمين والنّصرانيين كانت هي السبب الرّاعي لنشوء هذه الظّاهرة الإستشراقية ، فاستدعت هذه الحروب توغل الغرب في العالم الشّرقي ليسترجع خسارته الفادحة.وهناك من يجزم بأنّ تاريخ الظّاهرة الإستشراقية يرجع إلى رجال اللاهوت الذين أخذوا التّبشير كوسيلة لنشر تعليم الكنيسة ، فسخّر رجال اللاهوت جهودهم لخدمة الدّراسات الشّرقية ونشرها. وفي هذا الصّدد يقول مصطفى السّباعي: "وبعد أن عاد هؤلاء الرّهبان إلى بلادهم ، نشروا ثقافة العرب وأشهر مؤلّفاتها ولم ينقطع من ذلك الوقت وجود أفراد درسوا الإسلام واللغة العربية فترجموا القرآن وبعض الكتب العربية والعلمية والأدبية"[3].

ثالثا: تطور الظّاهرة الإستشراقية.

[1]. محمد كامل عبادة ، صفحات من تاريخ الإستشراق ، مجلّة العلمي العربي ، 1960م ، ص ص 344، 379.

[2]. علي محمد جريشة ، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، دار الاعتصام ، القاهرة ، 1979م ، ص 19.

[3]. مصطفى السباعي ، الإستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم ، دار السلام القاهرة ، 1999م ، ص4.

كان للإستشراق دورا كبيرا في الكشف عن التراث الشرقي، الذي ربّما من الصعب أن يكتسي طابعا عالميا إلا بفضله ، لا بدافع حب الإطلاع و إنّما بدافع تحطيم كيان الأمّة الشرقية.

لقد كان للظّاهرة الإستشراقية مراحل وأهداف ودوافع ، وخاصّة مايتعلّق منها بالدّراسات الإسلامية ، وجدير بالذكر أنّ من الباحثين من يفْرط في الثّناء على المستشرقين عند الحديث عن دوافعهم ، ويذهب إلى أنّ الدّافع العلمي ، كان وراء نشأة الإستشراق ، وأنّ الرّغبة في خدمة العلم ، كانت الحافز للدّراسات الإستشراقية، بينما يفْرط البعض في التّحامل على المستشرقين ، مجرّدا إيّاهم من كلّ قصد نبيل . وفي الحقّ أنّ كلا من الثّناء المطلق والتّحامل المطلق يتنافى مع الحقيقة التّاريخية التي سجّلها هؤلاء المستشرقون فيما قاموا به من أعمال ، وما تطرّقوا إليه من أبحاث ، ونحن من قوم يأمرهم دينهم بالعدل حتّى مع أعدائهم مصداقا لقوله تعالى: { وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى }[1].

مرّت الظّاهرة الإستشراقية بمراحل مختلفة وما هذه المراحل إلاّ دليلا وبرهانا من طرف الإستراتيجيات المحكمة والمدعمة من قبل حكوماتها الغربية ، حيث كان تقسيم المراحل مختلفا حسب تقسيم الباحثين . ومن بين هؤلاء الباحثين وقع اختيارنا على تقسيم أحمد سمايلوفيتش في كتابه "فلسفة الإستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر" ، وكان تتبعنا لطريقته لدقّة تقسيمه لا لسبب آخر.

المرحلة الأولى:وهيمرحلة التّكوين التي وُجد فيها ارتباط وثيق بين فكرة التبشير والحركة الاستعمارية أو بالأحرى بين فكرة التّبشير وفكرة الإستشراق ، حيث أنّهما عدا واحد تحت هدف واحد ألا وهو نسج خيوط من الأكاذيب والمغالطات الزّائفة ، فمسعاهم هو تغيير العقلية العربية عن طريق مؤسّستين هما: "التبشير الذي انصب على ميدان التّعليم والإستشراق الذي انكب على مجال الثقافة"[2].

---

[1]. المائدة، الآية رقم 8 .

[2]. أنور الجندي ، إطار إسلامي للفكر المعاصر ، دار المكتب الإسلامي ، ط2 ، 1998م ، ص13.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة التقدم التي وُجد فيها أنّ النّشاط الإستشراقي خلال القرن التّاسع عشر بلغ عصره الذّهبي ففي هذه المرحلة لبس ثوبا ذا صبغة علمية وثقافة خاصّة عند تأسيس معاهد ومدارس متخصصة للدّراسات الشّرقية ، فبهذا كلّه تحدّدت معالمه واتّضحت مجالاته وانكشفت أهدافه .

المرحلة الثالثة:وهي مرحلة انطلاقية حيث اتّضحت معالم النشاط الإستشراقي على عديد المستويات، وفيها بلغ ذروته في النّيل من التّاريخ العربي والإسلامي، واتسعت دائرة الافتراءات والأباطيل المزيفة للحقائق ومبادئ الحضارة الإسلامية، وبالتّالي وصل المستشرقون إلى تحقيق هدفهم ألا وهو تجسيد المزاعم المدسوسة والمدروسة بشتّى الطّرق والوسائل.